جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا
شعبة الأدب والنقد

بحث في

أثر المدائح النبوية في الأدب العربي

٠٠٢٧٨٥
٧٩٩
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إعداد الطالب
طلعت صبح السيد

مقدمة

لقد لفت نظري وأنا أقلب صفحات الأدب العربي أن «شعر المديح النبوي» مهمل الذكر، متروك الحديث عنه إلا في النادر القليل.

ومن الغريب ألا يلتفت مؤرخو الأدب العربي كثيرا إلى هذا الشعر مع اهتمامهم بشعر الذم والهجاء ومدح الخلفاء والأمراء. ذلك الشعر الذي يعبر عن ذات الخليفة ورغباته أكثر مما يعبر عن ذات الشاعر ووجدانه.

ولم يدر بخلدهم أن أسمى مراتب الثقافة العربية وأعظمها شأنا ونفعا، دراسة سيرة الرسول وعرض جوانب من أعماله وصفاته وأخلاقه وما صوره لنا الأدباء من كريم خلقه وعظيم سجاياه لتكون ماثلة أمام جمهور الأمة العربية في هذا الزمان يرى فيها ما يحاول أن يجده نادرا في القراءات الأجنبية من سمو روحي، وهدى فكري، وكمال إنساني، لذا رأيت أن أتجه نحو هذا البحث الذي قام اختياري له نفحة من نفحات الرسول الكريم بل وتوفيقا وجهني إليه رجوت أن يكون من حسناتي عند الله، وسأحاول أن أبذل جهدي على هذا اللون الذي له قيمته وأهميته في الأدب العربي لما في هذا اللون من شعر المديح النبوي فيه من حرارة الوصف ودقة التعبير وسمو الخيال وصدق العاطفة ما يشهد لأصحابه برحابة الباع، واتساع الأفق وإخلاص النية وجودة التصور.

والمدائح النبوية في الأدب العربي تستأهل الظهور في كتاب خاص. فهو بحث يأنس به صاحبه، وهذا الأنس أفضل جزاء.

وأي أنس أفضل وأعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية التي بثها نبي الإسلام في أرجاء الوجود؟

وأي غرابة في أن يخلق الله رجالا يمثلون العظمة الروحانية، ويظلون على الدهر مضرب الأمثال؟

وقد بينت في بحثي هذا كثيرا من الحقائق التي عرفت والتي لم تعرف فأرجو الله سبحانه أن يوفقني بما أريد.

الصلة بين الشعر والدين

« لقد لوحظ أن الشعر الديني في الغالب صدى للمجتمع بالرغم من أن الدين يصور علاقة الإنسان بخالقه أو ما يقدسه ، وذلك لأن الفنان والفنانين يتأثرون - كأفراد - تأثرا كبيرا بمجتمعاتهم » (١) .

والشعر بما له من مكانة قوية استطاع أن يخدم الدين في ظروف كثيرة ، وعمل على نشر أهدافه والدفاع عنه ، كما استطاع الدين أن يمد الشعر بموضوعات جليلة وأن يلونه في كثير من الأحيان بألوان دينية مختلفة .

وكان الشعر أول الصيغ الأدبية في الظهور . ولما كان الكهان هم من أقدم الأدباء ينظمون الأناشيد الدينية وأناشيد الحروب والمقطوعات التي تصور العقائد الدينية أو تتحدث عن العبادات - يصورون كل ذلك شعرا حتى يسهل حفظه أو التغني به .

أقول لما كان ذلك كانت الصلة إذن قوية وقديمة بين الشعر والدين قدم الشعر والدين نفسيهما ، حتى حمل الرومان على أن يطلقوا على الشاعر والنبي كلمة واحدة هي « فاتيس » .

(١) شوقي وشعره الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي

الشعر الديني عند العرب

والشعر العربي لا يوجد فيه - في الجاهلية - شعر ديني بهذا المعنى الذي نجده في العصور القديمة من حث على العبادات فليس عندنا من ذلك إلا أبيات متفرقة على الرغم من أن للعرب في جاهليتهم عبادات متنوعة ، وقد يكون من أسباب ذلك أن الشعر الجاهلي الذي وصلنا لا يرجع إلى أبعد من قرن قبل الإسلام ففقدنا الشعر الديني مع ما فقدنا من شعر جاهلي ، وقد يكون من الأسباب أيضا أن العرب لم يقدس صنمه كما كان يقدسه المصري القديم مثلا .

وليس هناك اعتبار لقول من يقول : إن ذلك يرجع إلى العرب أنفسهم (نيكلسون) فقد كان الدين عندهم أمرا لا خطر له في حياتهم إذ الواقع غير ذلك فالدين عندهم كان ذا خطر كبير والقرآن يعطينا صورة واضحة عن قوة تلك الحياة الدينية عند عرب الجاهلية فهم يدافعون عن دينهم بالمجادلة والكيد ، فإذا لم يفد ذلك كله دافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم وبذلوا كل ما يستطيعون في سبيل القضاء على ذلك الدين الجديد وفي سبيل دينهم الذي يقدسونه ، وما كانوا يفعلون ذلك لو لم يكن للدين عندهم إلا ذلك الشأن اليسير الذي يمثله لنا الشعر الجاهلي ولعل من أهم هذه الأسباب الدين الإسلامي الجديد الذي محا بانتصاره كل أثر للوثنية العربية من أصنام وشعر وغير ذلك دين جديد لابد من أن يحاول القضاء على تلك العبادات والاعتقادات القديمة الموجودة حتى يشيع ، وقد تم له ما أراد .

وعلى ذلك فليس أمامنا من الشعر العربي الديني إلا ذلك الشعر الإسلامي الذي يمجد الإله الأوحد ويدافع عن الدين الجديد ، فكان حسان بن ثابت شاعر الرسول والدعوة ، لأن المجتمع الإسلامي الناشئ كان يحتاج في ذلك الوقت إلى من يدافع عنه ضد معارضيه ومجد الدين الجديد ،

وللشعر أثره في النفوس وله مكانته .

نشأة المدائح النبوية في الأدب العربي

لقد تأخر هذا الفن في الوجود عن كثير من الفنون الشعرية الأخرى فلما نشأ النابغة الذبياني مدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكسب مالا كثيرا ، حتى قيل :

" إن أكله وشربه كان في صحائف من الذهب والفضة ، كما تكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر قليلا مع هرم بن سنان " (١)

والمدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع ، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص ، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول .

" وما قيل بعد الوفاة ليس رثاء ، ولكنه في الرسول صلى الله عليه وسلم يسمى مدحا ، كأنهم لحظوا أن الرسول موصول الحياة وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء " (٢)

ووجود المدائح النبوية مرده إلى التعصب الديني الذي ساد البلاد منذ الاحتلال الصليبي للشرق ، وظهر عند الشعراء ميل إلى مدح الرسول وتمجيده بقصائد طويلة .

" ومن هؤلاء شاب لديه أبو العباس السنهوري المصري وهو القائل :

والله ما لي سوى جاه الرسول به ∴ أرجو النجاة غدا من شر أهوالي

فهو الحبيب الذي ما خاب آمله ∴ بجاهه نلت مقصودي وآمالي " (٢)

وأكثر الذين اعتنقوا الإسلام أثناء مقام النبي في مكة لا يستطيعون تحدي الكفار بل كانوا يستترون ليحفظوا دينهم وأنفسهم من أذى المشركين لذا ازوروا عن قول الشعر وبالتالي فإنهم لم يمدحوا النبي لأن في مدحهم إياه ضرر لهم إذ أن الشعر كان وما زال سريع السريان بين أفراد بني الإنسان ، أما بعد الهجرة " وفي ظلال دولة المدينة أمن الشعراء على أنفسهم فراحوا يشحذون قرائحهم في سبيل نصرة الإسلام ولا عجب

(١) العمدة جـ١ ص٤٩ لابن رشيق .
(٢) المدائح النبوية لزكي مبارك .
(٣) الشعر في ظلال المماليك للدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماصي .

فقد كان الشعر يفعل في النفوس فعل السنان في الأجسام، وقد كان أول من نظم القريض في هذا السبيل حسان بن ثابت .. (١) وظهر حينئذ مديح نبوي مباشر قيل في وصف ذات النبي.

ومن هذا قول العباس عم النبي:

من قبلها طبت في الظلال وفي :. مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر :. أنت ولا مضغة ولا علق

وقال عبد الله بن رواحة:
إني تفرست فيك الخير أعرفه :. والله يعلم أني ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته :. يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن :. تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا

ومن الذين مدحوا النبي صلى الله عليه وسلم:
الأعشى: ولكن الدكتور زكي مبارك يقول: ليس لدينا من المدائح النبوية "لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صدفته قريش، ولو كان صادقا ما تحول" (٣)

ولكن على كل حال فقصيدة الأعشى كانت خاتمة لهذا الفن الجميل، وقد قيلت في وقت كان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر،

ومن القصائد التي مدح فيها الأعشى الرسول بالبذل والعطاء، قصيدته التي يقول فيها:
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا :. وعادك ما عاد السليم المسهدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة :. ولا من حفى حتى تزور محمدا

وفي العمدة: "جعل الأعشى متجرا يتجر فيه نحو البلدان وقصد به ملوك العجم فأثابوه وأجزلوا عطيته" (٢)

وقد حط هذا من منزلة الشعراء في الجاهلية.

(١) المدائح النبوية في العصر الأول الإسلامي للدكتور علي صافي حسين، (٢) العمدة جـ ١ ص ٤٩ لابن رشيق.
(٣) " " للدكتور زكي مبارك.

وجاء الإسلام فأنكر الحطيئة من السؤال بالشعر حتى ذل الشعر من ناحية التكسب، وعمت البلوى معظم الشعراء.

"وسرعان ما أفاض الشعراء في المدح، حتى صار أوسع ميادين الشعر العربي، وقد جاراهم النقاد في الغالب." (١)

والذي أظنه أن سوق المدح وإن كان قد ارتفع فقد كان ذلك لمآرب خاصة ثم هبط اللواء عندما رأى الناس في الشعراء ناساً لا خلاق لهم ولا دين.

وحملت طائفة الخوارج على شعر المدح فهم لا يريدون مدح الناس كما أن لبعض النقاد كانوا من معاصر الشاعر ألا يقول الشعر رغبة في عطاء أو رهبة من عقاب.

وليس معنى ذلك أن شعر المديح قد مات كله فإن السوق مازالت قائمة يفد إليها شعراء طابت نفوسهم يقولون الشعر عن إعجاب للممدوح احتلا قلب الشاعر، فانبثق الشعر عن رغبة قوية في المدح وعن عاطفة صادقة.

أما عن قول زكي مبارك بأن المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف فهذا القول يحتاج إلى مراجعة كما قال الدكتور أحمد الشرباصي لأن ظهور التصوف كمذهب واضح المعالم في المجتمع الإسلامي قد تأخر كثيراً عن القول في المدائح النبوية، والدكتور نفسه قد ذكر أن الأعشى قد مدح الرسول بقصيدة من الشعر.

(١) النقد الأدبي الحديث ص١٩٤ للدكتور محمد غنيمي هلال.

تطور المدائح النبوية

" لا نجد أدب أمة من الأمم من التقدير والاحترام لذوي السلطان والقادة والملوك، ففي الأدب اليوناني والروماني إشادة بالشجعان في الحروب وهكذا في كل عصر. " (١)

فلما ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم هاجمه شعراء ودافع عنه آخرون ولقد كان حظ الرسول في المدح أوفر الحظوظ بين الرسل والأنبياء.

" فكل نبي قامت من حوله الأساطير، أما النبي محمد فحجته الباقية هي القرآن، وهو كتاب لم يضف إليه سطر واحد بعد موت الرسول،
(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)
فكان نبيا صاحبا استغنى به الشعراء والأدباء،
كتاب الله أصدق كل قيل :. رواه المصطفى عن جبرائيل " (٢)

ومهما يكن فإن المدائح مرت بمراحل مختلفة منذ نشأتها مثل الجنين في تكوينه في بطن أمه إلى أن يبلغ أشده ويستوي، وإن كان نموها قد توقف في الطريق فترة غير قصيرة.

وأول من أنشأ قصيدة في مدح الرسول هو الأعشى، كما أنشأ النابغة الجعدي قصيدة مدح للرسول يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى :. ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

ونحن لا ننكر أن كعب بن زهير جاء تائبا مختارا يعبر عن حب شديد للرسول - وإن كان في نظري كان خاليا من روح المتصوفين - وهل أدل على ذلك من قوله في القصيدة:

ما زلت أقتطع البيداء مدرعا :. جنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتى وضعت يميني لا أنازعه :. في كف ذي نقمات قوله القيل

فهذه القصيدة لم تنظم إلا في سبيل النجاة من القتل. يؤيد ذلك خروج كعب وأخيه بجير إلى الرسول كما يقول (مهذب الأغاني جـ ١ ص ١٦٢)
فلا عتبة في ذلك من الشعر المحكم الرصين - وإن خلت من قوة الروح -
ويجري على التقاليد الأدبية لشعراء الجاهلية.

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ٢٥ للدكتور محمد أحمد الحوفي.
(٢) المدائح النبوية في الأدب العربي ص ١٥ زكي مبارك.

ولا يعد الدكتور زكي مبارك حائيته لقصيدته من المدائح النبوية لأنه يرى أن الشاعرين لم يصدقا النية في مدح الرسول حين قالا قصيدتيهما.

ومن العجيب أن الذي يقول به زكي مبارك لم يقل به أحد من المتقدمين، فقد اهتموا بها اهتماما عظيما، وعدوها من أجمل ما قيل في مدح الرسول، وتناولها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها، وأولى بشرحها فريق من كبار الرجال.

أما حسان بن ثابت أكبر شعراء الرسول يمتاز بالصدق فقد كان يمدح الرسول وأوصاه الرسول أن يتعلم الأنساب من أبي بكر ليكون شعره أوجع في الهجاء.

وأقوى قصائده هي العينية فهي تتخذ مدح الرسول وأهله سنادا لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة.

فحين اجتمع وفد تميم عند النبي للمفاخرة قام خطيبهم فتكلم، وقام خطيب الرسول ثابت بن قيس فأجاب، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال فقام حسان فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم :. قد بينوا سنة للناس تتبع

ومن جيد شعره أيضا الهمزية في مدح الرسول وهجاء أبي سفيان، وقصائد حسان ترق حين يجرد نفسه من كل شيء سوى مدح الرسول أما حين يشرع سنان حده وينزل إلى ميدان الدفاع فليست قصائده إلا قذائف ملتهبة تبعثها ثورة عارمة، يمثل ذلك العينية، أما القصائد التي فيها نوادر التصوف عند حسان فهي التي قالها بعد وفاة الرسول.

" إن حسان من أولئك الذين امتزجت أرواحهم بحب الرسول، يقول حسان في إحدى قصائده:

بطيبة رسم للنبي ومعهد :. منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تمتحي الآيات من دار حرمة :. بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضح آيات وباقي معالم :. وربع له فيه مصلى ومسجد. " (1)

(1) رسالة الماجستير "المدائح النبوية في العصر الحاضر" للدكتور محمود حمودة.

وبعد فلقد نما حسان الفرس الذي وضع بذوره الأول الأعشى وكعب وأخذ يتعهده حتى جاد لنا بصورة طيبة رائقة كانت مثلاً للشاعرين وللشعراء الصادقين الذين أخلصوا في مدحهم.

"وجاء الإسلام في ذلك الوقت دين ناشئ، يحتاج إلى مثل هذا الشاعر الذي يدفع عنه ببيانه تلك الهجمات التي كانت تأتيه من كل جانب فيتألفه النبي." (١)

وليصبح حسان شاعر الرسول يتحدث عن دعوة محمد إلى الهدى ودين الحق وندع الشاعر يحدثنا هو بحديثه. "

وقال الله قد أرسلت عبداً :. يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقومي صدقوه :. فقلتم ما نجيب وما نشاء
ألا أبلغ أبا سفيان عني :. فأنت مجوف نخب هواء
هجوت محمداً فأجبت عنه :. وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء :. فشركما لخيركما الفداء " (٢)

وأحب أن أشير إلى أن الفرزدق استطاع له أن يقف موقفاً يمدح فيه الرسول، وقد يمكن القول بأن مدح الفرزدق للنبي وأهله هو بداية الصدق في المدائح النبوية، ذلك بأن مدح حسان وقع في أيام كان مدح النبي فيها ينفع الشاعر ولا يضره. أما مدح النبي وأهله في أيام الفرزدق فكان باباً من الشر يفتح للمادحين لأن تلك المدائح ما كانت تروق خلفاء بني أمية.

وهذا - أيضاً - هو الكميت الذي يتقرب إلى الله بحب أهل البيت فلقد رأى النبي في المنام وأنشده:

ألم ترني من حب آل محمد :. أروح وأغدو خائفاً أترقب

ولا ننسى أن مدح أهل البيت فرع من المدائح النبوية فالكميت لا يمدح أهل البيت لذواتهم وإنما لقربهم من الرسول كقوله في الهاشميات الكبرى:

بني هاشم رهط النبي فإنني :. بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فهو يفتتح قصائده بغرامه بآل البيت ومدحهم كقوله:

(١) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ٢٠٧ . (٢) ديوان حسان ف .

تيمة لقلب حتيم مستهام :. غير ما صبوة ولا أحلام
بل هواي الذي أجن وأبدي :. لبني هاشم فروع الأنام

ثم يعرج على مدح الرسول فيقول :

أسرة الصادق الحديث أبي القا :. سم فرع القدامس القدام
خير حي وميت من بني آ :. دم طراً مأمومهم والإمام
كان ميتاً جنازة خير ميت :. غيبته مقابر الأقوام
وجنيناً ومرضعاً ساكن المهد وبعد الرضاع عند الفطام
خير مسترضع وخير فطيم :. وجنين أقرت الأرحام

ولا ينسى أن يختم القصيدة برثاء علي وابنه الحسين لأن ذلك هو الغرض الأول من قصائده لهذا نحس فتور العاطفة في مدحه للرسول إذا قيست بقوله في علي والحسين .

وحين نصل إلى أبي العلاء المعري نجده قد أشاد بالدين ومدح الرسول . يقول :

دعاكم إلى خير الأمور محمد :. وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم إلى تعظيم من خلق الضحى :. وشهب الدجى من طالعات وآفل

" وهكذا تطور هذا الفن كما تتطور الكائنات الحية ، فنرى الأساليب ترقى ، والتعابير تقوى ، والصور الجديدة تحل محل القديمة وتعبر عن نفسها ، إن أولئك الشعراء هم الذين وضعوا اللبنة الأولى في ذلك البناء الضخم والذي ساعد في تشييده المتصوفون وغيرهم حتى علا وارتفع . " (1)

(1) رسالة الماجستير المدائح النبوية في العصر الحاضر للدكتور محمود ...

٧٩٩
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

هـ - موقف الرسول من شعراء المدح

إن النصوص التي بين أيدينا تشير إلى أن الرسول قد شجع الشعراء وأثنى على الذين مدحوه وأثابهم وأجزل لهم العطاء، وهذا لا ينكره عاقل، فالرسول بشر تهزه الكلمة الطيبة، فلقد روي صلى الله عليه وسلم ما يروقه من شعر الشعراء.

"فلقد روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يرتجز بقول عبدالله بن رواحة وقد أصيب أصبعه في إحدى المواقع:

هل أنت إلا إصبع دميت :. وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفس ألا تقتلي تموتي :. هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت :. إن تفعلي فعلهما هديت." (١)

ولقد بلغ من احتفائه لأصحابه أن بنى لحسان منبرا في مسجده ينشد عليه الشعر. وهل ننسى موقفه صلى الله عليه وسلم من كعب بن زهير، بعد أن هدر عليه القتل ثم جاء نادما صاغرا، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول :. متيم إثرها لم يفد مكبول

أم ننسى قوله صلى الله عليه وسلم عندما قتل النضر بن الحارث يوم بدر ورثته أخته قتيلة بقصيدتها التي فيها عتاب كريم للرسول فلما سمعها قال متأثرا "لو جاءت قبل قتله ما قتل"

ولقد كانت السيدة عائشة رضوان الله عليها كثيرة الرواية للشعر ومما يذكر أنها روت جميع شعر لبيد.

تلك مواقف خالدة للرسول بالنسبة لقول الشعر وتعلمه وموقفه من أصحابه الذين دافعوا عنه بالشعر ووقفوا بجانبه.

وهكذا كان الرسول يحنو على الشعراء ويشفق عليهم. على أن هناك غرضا ساميا وراء هذا العمل السديد الأمين يقصد إليه بأريحيته للشعر وحمايته للشعراء وذلك هو الحث على الاحتفاظ بشعر العرب وروايته .. وبهذا توفر العلماء عليه وحفظوه .. ولولا ما كان منه لما كان الرواة وحفظ هذه الكنوز وقد قال صلى الله عليه وسلم في أمر الجاهلية:

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٢٩٠ لزكي مبارك.

إن الله قد وضع عنا آثامنا في شعرها وروايته.

وليس معنى قولنا إن حسان كان شاعر رسول الله أو كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة أن المسلمين أقام له شعراء يفخرون بالفخار والهجاء وما إلى ذلك من نخوة الجاهلية التي بعث لمحوها والقضاء عليها.

وإنما الذي أقام هؤلاء الشعراء قريش وسائر العرب الذين كانوا يفخرون بشعرائهم بالنسبة للرسول ومن معه ويحرضونهم ويخادعون الله وهو خادعهم، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

فلما أرادوا هجاءه بشعر شعرائهم وخطب خطبائهم أبى الله إلا أن يكون عليهم بنفس سلاحهم وبأسهم بدينهم.

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواصره

المدائح النبوية في عصر البوصيري

شاعت المدائح النبوية في القرن السابع الهجري شيوعا لم يسبق لها أن شاعت قبله ، فلقد نظم البوصيري عدة قصائد في مدح الرسول واشتهر منها البردة لأنها أجودها وأشدها حرارة ، ومن هذا يتضح أن البردة كانت سببا في وجود ثروة هائلة في مدح النبي من القصائد والشروح والبديعيات .

يقول البوصيري في مطلع قصيدة :

أمن تذكر جيران بذي سلم :. مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة :. وأومض البرق في الظلماء من إضم

وهي طويلة وتعد نموذجا للشعراء الذين جاءوا بعد البوصيري حتى يومنا . وللبوصيري في مدح الرسول قصائد عديدة غير البردة منها الهمزية التي تحدث فيها عن حياة الرسول وفضائله ومزاياه ومعجزاته ، وغير ذلك من الأمور . وقصائد البوصيري مصدر وحي لكثير من الشعراء الذين جاءوا بعده حتى يومنا .

والبوصيري يختم مدائحه بالدعاء للمسلمين طالبا الغفران راجيا إزالة الكرب والنكبات :

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا :. واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

بجاه من بيته في طيبة الحرم :. واسمه قسم من أعظم القسم

وهذه بردة المختار قد ختمت :. والحمد لله في بدء وفي ختم

أبياتها قد أتت ستين مع مائة :. فرج بها كربنا يا واسع الكرم

" فالبوصيري أول شاعر يدفعه صدق حبه الشديد للرسول إلى مدائحه النبوية . " (١)

" والبوصيري قدوة هذا العصر في هذا اللون حتى حاكاه كثير من شعراء عصره وكفاه فخرا بردته الشهيرة التي شطرت وخمست وسبعت وشرحت مرات عديدة وترجمت للألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية وله قصيدة تصل إلى أربعمائة وستين بيتا مدح فيها الرسول وهي الهمزية ومطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء :. يا سماء ما طاولتها سماء " (٢)

(١) شوقي وشعره الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي .
(٢) الشعر في ظلال المماليك للدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماهي .

" ويقول البوصيري إنه كلما شرع في المديح اشتاقت عليه معاني الشعر وقوى باعه وفاضت قريحته فأصبح يساجل الشعراء ، ويسلم له الشعر قلاده " (١)

وأغلب الظن عند زكي مبارك أن البوصيري استأنس عند نظم بميميته ابن الفارض ، ودليل ذلك تشابه المطلعين .
ويقول الدكتور محمود زغلول سلام : وبين البردة وميمية ابن الفارض تناظر ،
فقد بدأ ابن الفارض قصيدته بقوله :

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم ∴ أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلا نسمة سحرًا ∴ وماء وجرة هلا نهلة بفمي

ومطلع البردة :

أمن تذكر جيران بذي سلم ∴ مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ∴ وأومض البرق في الظلماء من إضم

وقال ابن دقيق العيد يمدح الرسول :

شرف المصطفى رفيع عماده ∴ ليس يحصى بكثرة تعداده
لاح للمهتدين منه سراج ∴ بيد الله قدحه وزناده

إلى آخره

قصيدة تبدو فيها رقة المتصوفة وتفانيهم في حب الرسول لأن التصوف قد شاع في هذا العصر .

ومن مديحه النبوي أيضا :

يا سائرا نحو الحجاز مشمرا ∴ اجهد فديتك في المسير وفي السرى " (٢)

(١) الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمود زغلول سلام .
(٢) الشعر في ظلال المماليك للدكتور عبد الفتاح السيد .

أثر البردة في اللغة والأدب العربيين

ومما يتصل بالحديث عن المدح الحديث عن المدائح النبوية التي ظهرت في ديار الأندلسيين زمن الطوائف ثم سرت إلى المشرق ، وفتح للشعراء باب هذا المصر البوصيري ببردته وهمزيته فما إن فتح لهم هذا الباب حتى اندفعوا خلفه ينسجون على منواله يريدون أن يبزوه أو يلحقوه ، وقد فاتهم أن الرجل مطبوع على الشعر ومدفوع إلى هذا المدح بدوافع نفسانية صادقة

فقد مرض وتعذب في مرضه حتى يئس من الشفاء ، فلجأ إلى أكرم الخلق وأعزهم - على غرار سابقيه - طالبا الشفاعة حتى ينقذه الله مما ألم به .

وقد اتخذ الشعراء بردة البوصيري مثلا لهم يحتذونه في مدائحهم النبوية إلى عصرنا هذا .

" ومن أبرز من عارضوها من الشعراء ابن جابر الأندلسي ببديعيته التي مطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم :. وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وقد ابتدع ابن جابر حين عارض البوصيري فن البديعيات ، والبديعية قصيدة في مدح الرسول ، يشير كل بيت من أبياتها إلى فرع من فروع البديع . " (١)

وأشهر بديعية نظمت بعد ذلك هي بديعية ابن حجة الحموي ، وتجيء شهرتها من ذلك الشرح الذي سماه (خزانة الأدب) وهي موسوعة ضخمة ضمنت كثيرا من أدب القرن الثامن الهجري .

ويمكن أن نرجع أثر البردة في اللغة العربية إلى خمس نواح :

١- أثرها في الجماهير الشعبية . لم يحفظ الجمهور في الأقطار الإسلامية قصيدة مطولة كما حفظوا البردة ، فقد كانت ولا تزال من الأوراد بل كان لا محفل يعقد في مديح الحسين . والقصيدة لها أثر في تعليم الجماهير الأدب والتاريخ والأخلاق وكذلك استطاع البوصيري أن يؤثر في الأدب تأثيرا لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام .

(١) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك .

٢- وأما أثرها في التأليف فيظهر فيما وضع لها من شروح، فقد شرحها ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ وعدد كبير غيره ولأكثر هذه الشروح أسماء شعرية.

وعند النظر في هذه الشروح نراها مجموعات نفيسة تزخر بالفقرات للعلوم والأدب والتاريخ.

٣- وأما أثرها في الدرس فيتمثل في تلك العناية التي قام بها جمهور العلماء الأزهريين إلى عقد الدروس في يومي الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجوري على البردة.

٤- وأما أثرها في الشعر والشعراء فعظيم جدا فقد ضمنوها، وشطروها وخمسوها، وسبعوها، وشرحوها، وعارضوها.

فمن الذين ضمنوها الشيخ قاسم وأول تضمينه.

أمن تذكر أوطانك علم :. أم من تفقد جيران بذي سلم

ومن الذين شطروها احمد بن الشرقاوي الخلفي

وأما الذين خمسوها فيبلغ عدد من عرفنا أخبارهم نحو الثمانين، وليس لتسبيع البردة شواهد كثيرة، أما الذين عارضوا البردة فيعدون بالعشرات ويكفي القول بأن جميع المدائح النبوية التي قيلت بعد البوصيري على الوزن والقافية قام أصحابها متأثرين بالروح البوصيري ولم يحصر عدد السائرين وللبردة فيه طراز، وأشهر من عارضوها أخيرا محمود سامي البارودي الذي سمى قصيدته "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" ومطلعها:

يارائد البرق يمم دارة العلم :. واحد الغمام إلى حي بذي سلم

واحمد شوقي وسمى قصيدته "نهج البردة" ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم :. أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة ولكن أي معارضة؟

لقد ابتكر فنا جديدا هو البديعيات.

وقد رأى معاصره ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد، فتقدم صديقه أبو جعفر الألبيري بشرح بديعيته والمعترف له بالسبق.

وفي عصر ابن جابر وضع صفي الدين الحلي المتوفى عام ٧٥٠ قصيدة سماها

" الكتاب البديعية في المدائح النبوية ".

ولأكثر هذه البديعيات شروح منها الوسيط والوجيز والمبسوط وأكثر هؤلاء الشراح من المتفوقين في العلوم العربية، وفي شروحهم من الفوائد النحوية والصرفية والبلاغية واللغوية والأدبية والتاريخية فنون أكثرها من المستملح المستطاب.

" وهناك بعض قصائد اتجه إليها الناس لأن قائليها اتجهوا إلى محاكاة البردة أسوة بما فعل البارودي وأحمد شوقي من قبل " (1)

ومن ذلك:

١- ظل البردة للمرحوم الشيخ محمد عبد المطلب.

٢- نهج البردة لليوزباشي محمد توفيق زارع ومطلعها:

لطيف سرى فشفا صبا من السقم :. سرى الهموم وجلى حالك الظلم

٣- الإلياذة للمرحوم أحمد محرم.

٤- بردة محفوظ للشاعر أحمد محفوظ ومطلعها:

قلب تقسم بين الحب والألم :. بادي الصبابة من شوق ومن ضرم
ما زال يخفق في أحشاء غادرة :. حتى استجاب إلى الأدواء والسقم

والذي لا شك فيه أن أكبر عمل أدبي في هذا العصر الحديث في ميدان الشعر هو تلك الإلياذة الكبرى التي سجل فيها صاحبها سيرة الرسول وقدمها إلى المسلمين في قالب شعري ميسر، فقد عرضها ما يشهد باستغلال عنصر الخيال كما يعرفه الذوق العربي الإسلامي، وما نطمع أبدا بحكم على الإلياذة محرم بأنها خالية من الصور البيانية المؤثرة، وما فيها من إيحاءات تبعث على النشاط النفساني والذهني معا.

وإذا أردنا أن نعرف قيمة هذه الإلياذة وجدنا أنها ذات قيمة أدبية كبرى منها قد أضافت ذخرا إلى شعرنا العربي يعتبر أكبر عمل أدبي في شعر العصر الحديث، وقيمتها لا تقتصر على عدد أبياتها بل لأنها جمعت سيرة الرسول وعرضتها عرضا شائقا مغايرا لأسلوب النثر المألوف في رواية مثل هذا الموضوع.

(1) العامل الديني في الشعر المصري المعاصر للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوي.

المدائح في العصر المملوكي

انتكس الأدب في عصر المماليك ، ولم يتجه الشعراء في تلك الفترة إلى الملوك يمدحونهم لأن الحكام لم يشجعوهم على ذلك ،
ومع ذلك فإن الشعراء لم ينفضوا عن مدح الرسول بل زادتهم تلك الحالة السيئة عكوفاً على هذا اللون من الشعر يتوجهون به إلى الرسول متوسلين ، ومع ذلك ومع كثرة هذا اللون إلا أن تلك القصائد خالية من قوة السبك وجمال التصوير وتلبس الأثواب الكثيرة من الحلل البديعية مما أثقل كاهلها ، ولقد أثرت تلك الروح التي جرت في قصائد المديح النبوي في العصر المملوكي أثرت في شعراء العصر الحديث الذين مدحوا الرسول ، ففي مطلع العصر الحديث نجد جماعة من الشعراء قد أجهدوا أنفسهم طويلاً في محاكاة سابقيهم من الشعراء الذين اتخذوا المدائح النبوية وسيلة للصناعة البديعية .

وظل الحال كذلك يتابع الشعراء في ألوان البديع إلى أن هبت مصر من سباتها العميق وهبت تفتح عينيها على ثقافة الأمم
وهنا نقول :
إن العصر الحاضر ارتقى بالأدب وسما به ولا سيما فن المديح النبوي فلقد ارتقى وسما بما سجله الشعراء من صور رائعة وأفكار بارعة نهضت إلى مصاف الآداب .

ومع هذا فإن العصر المملوكي تجلت فيه المدائح النبوية حتى لا تكاد نجد شاعراً بعد عهد البوصيري لم يمدح النبي على نهج البردة أو على غير نهجها ، وقد يكون سبب رواج هذا اللون هو الشعور الديني القوي الذي وصل إلى حد التعصب وتجلى في حرب التتار والصليبيين الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على الإسلام .

أسباب قوة المدائح النبوية في القرن السابع الهجري

شاعت في القرن السابع الهجري ظاهرة شعرية واضحة هي كثرة المدائح النبوية، بعد أن كان المعهود هو كثرة المدائح في الخلفاء والملوك والسلاطين والأغنياء.

وعاون على ذلك:

١- الظروف السياسية التي أظلت مصر والشام في القرن السابع الهجري فقد كان السلطان في يد الأيوبيين ثم المماليك وهذا يحز في طبيعة الجنس العربي.

٢- محاولة الصليبيين القضاء على الإسلام في مصر والشام.

٣- كان للشعب في مصر دين يعتز به كما كان لتقاليد المماليك الذين يعتزون بالقوة والغلبة والسلطان.

٤- "قلة العطايا التي ينالها الشعراء بعد أن كانت هذه العطايا عزيزة وفيرة من قبل.

٥- روح التدين أو التصوف الذي ظهر كرد فعل للإقبال على متع الحياة ومباهجها." (١)

٦- حب البديع وإظهار القدرة عليه.

٧- ثم كثرة المتشاعرين من المغفلين الذين حسبوا عيبا ألا يتمدحوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتقاعدوا بذكره.

وهكذا نجد العصر المملوكي مليئا بأسباب خلقه. وإيجاد الشعر النبوي مما أذاعه على الناس بسرعة.

(١) الشاعر سليل المحمدية للدكتور أحمد الشرباصي.

ظهور البديعيات وسببه

البديعيات قصائد في مدح الرسول منظومة - غالباً - من بحر البسيط. ويتضمن كل بيت فيها نوعاً من أنواع البديع ، وقد يشير الشاعر في البيت نفسه إلى اسم النوع البديعي وقد لا يشير ، وقد أدى إلى ظهور هذه البديعيات غرام القوم بالمعارضة مع ما كان متغلغلاً في نفوسهم من ولوع بالبديع .

ذلك أن بردة البوصيري قد أوحت إلى الشعراء بالإكثار من المدائح النبوية . ولما كان مستطاعاً نفوسهم حب التقليد الذي قعدت بهم همتهم دونه لأن الرجل كان مخلصاً في مدحه . ابتكروا هذا النوع من المدائح النبوية ليأتوا في حسبانهم بما لم يأت به البوصيري ما داموا لم يستطيعوا ذلك من جهة الكيف .

ولكنهم بالرغم من قصورهم في حسن السبك للفظ الجزل أو الرقيق وفي الإتيان بالمعنى الجديد البديع - ذلك القصور الذي تخلفوا به عن البوصيري قد أضافوا إلى الأدب العربي وإلى علم البديع خاصة ثروة قيمة لا يستهان بها .

وحسبنا أن نعلم أن رجال البديعيات عدد غير قليل .

وأنه ما من بديعية إلا تناولها النقاد والشراح بالنقد والشرح . وأن نعلم أن إحدى البديعيات وهي بديعية ابن حجة الحموي شرحها صاحبها في كتاب ضخم (خزانة الأدب ونهاية الأرب)

وهو كتاب حافل علماً وأدباً وتاريخاً ونقداً وسواها حتى أصبح مرجعاً عاماً في علم البديع وأدب المماليك وأول أصحاب البديعيات ومبتكرها صفي الدين الحلي نظم بديعيته المسماة (الكافية البديعية في المدائح النبوية)

وقد سبقه معاصره ابن جابر الأندلسي وهو رجل ضرير ولذلك عرفت بديعيته ببديعية العميان ومطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ،، وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

وقد جمع الحلي في بديعيته من أنواع البديع أربعين ومائة نوع .

وجعل كل بيت منها مثالاً وشاهداً لذلك النوع، وذكر اسم النوع البديعي إلى جانب البيت، وله عليها شرح لطيف.

وقد حذا حذوهما كثيرون من شعراء هذا العصر نذكر منهم (عز الدين الموصلي) بدمشق، وابن حجة الحموي، والسيوطي، والسيدة عائشة الباعونية.

أما بديعية الموصلي فقد التزم فيها تسمية النوع في البيت ومطلعها:

براعة تستهل الدمع في العلم ؛ عبارة عن نداء المفرد العلم

وكذلك ابن حجة الحموي، أما عائشة فإنها لم تلتزم في بديعيتها تسمية النوع بل إنها مرة تسمى النوع في البيت وأخرى لا تستطيع ذلك.

وتكررت البديعيات وتتابعت حتى كان في العصر الثالث بديعيات لا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بل في مدحه حيناً وفي مدح السيد المسيح حيناً آخر.

لكننا نجد في كتاب (النقد):

"وواضح أن هذه البديعيات لم يكن الغرض منها مدح الرسول وإنما كان الغرض أن تجمع كل أنواع البديع وفنونه فهي قصائد تعليمية تقصد إلى تعليم الشباب الناشئين صور البديع ومحسناته اللفظية والمعنوية." (١)

(١) (النقد) اشترك في وضعه لجنة من أدباء الأقطار العربية.

المدائح النبوية في العصر الحاضر

لا عجب إذا لمع في بداية هذا العصر شعراء رفعوا لواء المديح النبوي ، فلقد اتسع نطاق المدائح حتى انضم إليها بعض الشعراء المسيحيين في الوطن العربي أمثال وصفي القرنفلي ، ولقد تطور هذا اللون في العصر الحاضر.

فحين نقرأ إحدى قصائد المديح نرى أفكارا جديدة وصورا فريدة وأساليب عالية ، ولهذا نجد في كل ديوان شعرا قيل في مدح النبي.

وهناك باعث الشعر العربي وهو البارودي والذي رد إليه الحياة والنشاط فأصبح شعرا ممتعا.

نجده يقول في مدح الرسول:

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج ؟ :. حتى فتكت بها ظلما بلا حرج
ما زال يخدع نفسي وهي لاهية :. حتى أصاب سواد القلب بالدعج

ولا عجب أن يقتبس البارودي على تراث الشعراء الذين مدحوا الرسول قبله ويعيش فيه فيأخذ منه.

وقال الجارم يمدح الرسول بقصيدة عنوانها (أبو الزهراء)

أطلت على سحب الظلام ذكاء :. وفجر من صخر التنوفة ماء
وأخبرت الأوثان أن زمانها :. تولى وراح الجهل والجهلاء
فما سجدت إلا لذي العرش جبهة :. ولم يرتفع إلا إليه دعاء
تبسم ثغر الصبح عند مولد الهدى :. فللأرض إشراق به وزهاء

وغيرهما من الشعراء كأحمد بن محمد الحملاوي وإسماعيل صبري

ثم يأتي احمد شوقي أبرز الشعراء الذين مدحوا الرسول في العصر الحاضر عن عاطفة مشبوبة صادقة.

يقول الدكتور ماهر حسن فهمي في كتابه شوقي وشعره الإسلامي:
" وإذا كان البوصيري في همزيته والبردة يعبر عن حبه نحو الرسول فقد كان لشوقي هدف أبعد مدى من ذلك. فهو يصور لنا صفات الرسول التي كانت أكبر عون على تحقيق دعوته والتي مكنته من أن يحول أمة جاهلية متفرقة إلى دولة إسلامية عزيزة الجانب. ليصورها لنا حتى تكون مثلا أعلى يقتدي به المسلمون في حاضرهم ويتخذ من حياة الرسول ما يذكر المسلمين بدينهم السمح وماضيهم المجيد ويكتب شعره حماسة وقوة، وتختفي منه نغمة الضراعة والتمني التي سمعناها عند سابقيه. " (١)

يقول شوقي في قصيدة نهج البردة:
ريم على القاع بين البان والعلم ∴ أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
ثم يقول بعد أبيات:
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ∴ فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية ∴ والنفس من شرها في مرتع وخم

وهكذا كان شوقي رائدا من الرواد الذين حملوا لواء الشعر ودافعوا عنه حتى كتب لهم النصر.
وجاء شاعر من رجال الأزهر فلم يفته نصيب من المديح النبوي وهو محمد الأسمر،
وأيضا قال محمود غنيم قصيدة طويلة يمدح فيها الرسول بعنوان (مولد الهدى)
وغيرهم كثيرون طرقوا في هذا الفن.

(١) شوقي وشعره الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي.

ويأتي الدكتور حسن جاد فيقول قصيدة بعنوان (مولد الهدى)

مادحاً نبي الرسول يقول :

من نور طلعتك استفاض بهاؤها :. واستبشرت بك أرضها وسماؤها

كانت ظلاماً يحجب السارب :. وليضل حسن قصدها سبيل عماؤها

وله قصائد أخرى في هذا المجال مثل :

(مولد النور)

ونرجع إلى شاعرنا شوقي الذي وجد في نشوة الفرح لانتصار المسلمين والاستغاثة بالرسول ليأخذ بيد أمته.

ومن أظهر ميزات شوقي بل لعلها الميزة الكبرى .. أنه كان رجلاً إسلامياً ، فلقد كان رحمه الله من أولئك البناة الذين شيدوا في قلوب جماهير الشرق صرحاً رفيعاً من حب الإسلام وتقدير الرسول ، وهذه القصائد التي كان ينظمها في مدح الرسول هل استطاع واحد من شعراء الإسلام أن ينتج مثلها ؟ .. اللهم لا

ويقول آخر :

" كان شوقي شديد الغيرة على دينه لا يدع فرصة تمر دون أن يذكر قومه بمجد الإسلام وبفضائله حتى لقد يخيل إليك وأنت تقرأ همزيته النبوية أو بائيته في "ذكرى المولد" أو نونيته "إلى عرفات" أو حائيته في "خلافة الإسلام" أو ميميته "نهج البردة" أنك أمام عاطفة دينية تجيش بها صدر هذا الشاعر وعقيدة راسخة تتمكن من قلبه وتتخلل جوارحه .

بل ليخيل إليك وأنت تقرأ تلك الدرر الغالية أنك تستمع إلى أحد الأئمة في الدين يدعوك إلى احترام الدين والتمسك بفضائله والعمل على إحيائه " (١)

(١) شوقي وشوقه الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي .

وقصائد شاعرنا في مدح الرسول من أقوى ما قال من الشعر الديني ويتجه فيها بكل قلبه وحبه إلى الرسول حتى يشفع للمسلمين عند الله فيأخذ بيدهم من هاوية الضلال والجهل وذل الضعف بعد أن ظلموا الدين وأساءوا إلى الشريعة بجهلهم وضعفهم .

أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة :. في مثلها يلقى عليك رجاء
متفككون فما تضم نفوسهم :. ثقة ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهم نعيم باطل :. ونعيم قوم في القيود بلاء
ظلموا شريعتك التي نلنا بها :. ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سناها واهتدى :. في الدين والدنيا بها السعداء

. . .

سألت الله في أبناء ديني :. فإن تكن الوسيلة لي أجابا
وما للمسلمين سواك حصن :. إذا ما الضر مسهم ونابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا :. وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركنا :. فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

. . . . .

يارب هبت شعوب من منيتها :. واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاء وثلاً منيا رأى حكمته :. أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا :. ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب أحسنت بدء المسلمين به :. فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

. . . .

ومنه نذكر وجود البذور الدينية عند شوقي سواء في الصبا أو في الكهولة ففي كهولته يكفي أن نقرأ " نهج البردة " التي قال عام ١٩١٠ ، أو " الهمزية النبوية "
" كل هذا الذي يزيد من الشعراء رقة الشعور ودقة الإحساس وسرعة التأثر " (١)

وفي الدور الأخير قلما يخلو ديوان شاعر من مدح الرسول ولكنه يتسم غالبا بالضعف أو التكلف ، كما كان يتسم بها الشعر في ذلك الوقت .

(١) شوقي وشعره الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي .

وفي عصرنا الحاضر نجد الشعراء لا يقتصرون على ذكر السيرة النبوية وصفات النبي بل يربطون بين الماضي والحاضر ويدعون المسلمين إلى الاقتداء بما في السيرة النبوية من بعث وقوة ، ولعل الذي أوحى بذلك هو تأثير الاستعمار الأوربي والحملات ضد الإسلام .

وقد رأينا في الفترة الأولى من عصرنا الحديث كيف أن المدائح النبوية تأثرت بما كان شائعا في عصر الأتراك من ألوان البديع والصناعات اللفظية وشيوع قصائد كاملة عرفت بالبديعيات ، فلما بدأ الوعي الإسلامي ينتشر بدأت تلك المدائح تأخذ مظهرا جديدا ، ومن ذلك قصيدة المرحوم محمد صادق عرنوس في مناسبة المولد النبوي ومطلعها :

جاء من صدر الوجود بالجاهلية :. زمنا كان للشقاء مطية

وللمرحوم أحمد زكي أبو شادي قصيدة بعنوان " النبي محمد "

هدمت أوهام القديم محررا :. أيقال : دينك ملؤه الأوهام ؟
وشرعت للعقل الحكيم سياسة :. ضمنت سداد جلالك الأيام

وللمرحوم أحمد محرم قصائد عديدة في مدح النبي وذكر ميلاده تتطور هذا اللون من القصائد بمرور الأيام ، ومن هذه القصائد

أ- ذكرى المولد النبوي الشريف ومطلعها :

من هيبة يغضي القريض وطرفه :. ويحيل فيك إلى السكون المنطق

ب- ومطلعها :

الكون أشرق نضرة ونعيما :. هذا هلالك فاتخذه كريما

جـ- ومطلعها :

رددوا الذكرى لقوم غافلين :. إنها ذكرى إمام العالمين

" وللمرحوم علي الجارم قصيدة بعنوان " محمد رسول الله " ومطلعها :

تحية ناد من شذى المسك أطيب :. ومن قطرات المزن أصفى وأعذب

وللأستاذ محمود أبو الوفا قصيدة أنشأها بمناسبة المولد النبوي ومطلعها :

صغ لي من الفرد القيثار ألحانا :. واجعل لي نبضات القلب أوزانا " (١)

(١) العامل الديني في الشعر المصري المعاصر للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوي .

ما جدّ في شعر المديح النبوي في العصر الحاضر

لم يخل عصر من العصور من التجديد والابتكار، ولقد تأثر فن المديح - كما تأثر غيره من الفنون الأخرى - بحركة التجديد في أدبنا العربي في العصر الحاضر فبدت - فيه - قصائد المديح في أثواب جديدة ومعان فريدة فتطلعت إليها النفوس ورنت إليها الأسماع، وكان حظ هذا اللون من الأدب العربي لا يقل عن حظوظ الألوان الأخرى فلقد خلت معظم القصائد من المقدمة الغزلية، وقل الحديث عن الناقة، وبدأ التوجه لأمجاد الماضي ومُثُله، والنظر في تاريخ العرب الحافل بالمفاخر، ثم كثرة الحديث عن الحروب التي يثيرها الغرب من آن لآخر متخذا من قوته وعدته وسائل ليستذل بها الشعوب وينتهي ذلك إلى الدعوة بالتمسك بالأخلاق الفاضلة والآداب العلية فبها ترقى الشعوب وتنهض الأمم والجماعات.

وهناك أشياء أخرى جديدة قد امتدت إليها يد الإصلاح والابتكار فخلقتها بعد أن لم تكن أو هذبتها وقومتها حتى نما غرسها، واستوى عودها من هذه الأشياء

الألفاظ

والأساليب

والصور

والأخيلة

المديح النبوي في النثر

ولم يقتصر المديح النبوي على فن الشعر فقط بل امتد واتسع ليتخطاه إلى النثر، فتأتى المدائح النبوية في خطب علي بن أبي طالب،
ونستشهد بهذه الخطب لأنك لا تظهر فيها تكلف في فقرات افتتاحية بل بعض الخطب، وليس هناك قصد إلى مدح الرسول.
يقول سيدنا علي:
" أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجا بالبينات، وتحذيرا بالآيات، إلخ

فيصف علي كيف كانت الحياة قبل بعثه ويغلب عليه العنف،

فيلون كلامه بفنون من الخيال، وهذه معان لم يتطرق علي بن أبي طالب وإنما وضعت أصولها الأولى في القرآن.
وليس غرضنا هنا الاستقصاء وإنما غرضنا أن ندل على ما في خطبه من أصول المدائح النبوية.

شعراء المديح النبوي كثيرون

لقد تكاثر الشعراء الذين مدحوا الرسول، ولا أستطيع في مجال محدود كهذا أن أحصيهم ولكني أذكر طائفة منهم تدل على من عداها سواء عاصرها أم تلاها.

فممن عملوا مدائح نبوية: سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن سعد الإسكندراني الذي أخذ عنه أبو حيان، وتوفي سنة ٧١٤ هـ ومن شعره قصيدة نبوية أولها:

حي بالأجيرع دون وادي المنحنى ∴ قلب تقلبه الصبابة والضنى
أتبعتهم يوم استقلت عيسهم ∴ بحشاشة ألفت معاناة العنا
ونثرت من جفني عقيق مدامعي ∴ حين استقلوا فاستحالت أعينا

وممن صاغوا في المدائح: محمد بن علي بن يحيى بن علي الغرناطي وله مدائح نبوية تزيد على ألف بيت. والألفان من الأبيات يكونان ديوانا، وله قصيدة مطلعها:

أأخاف من ذنبي وأنت شفيعي؟ ∴ وأخاف من جدب وأنت ربيعي

وممن صاغوا مدائح نبوية: الشيخ علاء الدين علي ابن المظفر الكندي الوداعي. يقول ابن حجر عنه: "سلك التورية في قوالب لم يسبقه أحد هذه الجماعة إليها، ولا يسقط فكره عليها"

وممن صاغوا مدائح نبوية فتح سموا فيها: محمد بن محمد بن محمد البصري وله ديوان في هذه المدائح أسماه "بشرى اللبيب بذكرى الحبيب" وهو كله قصائد نبوية، وقد شرح هذه القصائد في مجلد. ومن المشهورين بالمدائح النبوية أبو العباس السنهوري الضرير. يقول عنه ابن حجر: "صاحب المدائح النبوية المشهورة، وكان مقتدرا على النظم، وربما نظم القصيدة وفي كل كلمة منها ما لا يكثر دوره في الكلام كالظاء والجيم ونحو ذلك".

وممن نظموا مدائح: شهاب الدين أحمد بن يحيى التلمساني، اشتغل بالأدب، وولع به حتى مهر، وأنشأ مقامات أجاد فيها، وعارض جميع قصائد ابن الفارض بقصائد نبوية، وأوصى أن تدفن معه.

ومن المشهورين بالمدائح يوسف بن موسى بن سليمان الجذامي المرندي صنف الخصائص النبوية، وقام بتخميس بردة البوصيري، وله ديوان شعر. وغيرهم كثيرون لم يذكرهم أحد.

أثر المدائح النبوية في الأدب العربي

قدمت في بحث مجموعة لا بأس بها من شعراء المديح وقصائدهم، وقد امتازت تلك القصائد الآن بأقلام شعراء موهوبين بعثوا هذا اللون من جديد، وأجروا فيه الحياة، والحركة، وألبسوه ثيابا جديدة رائعة تشف عن كريم أصله وجمال عنصره، وذلك بعد أن جردوه من تلك الأردية البالية التي أثقلته، ونالت منه، وتقادم عليه قرونا طويلة،
ولقد جنى الأدب من وراء ذلك ثمرات طيبة شهية، ولا عجب!!!

لأن الرواد الأول أمثال البارودي وشوقي ومحرم وإسماعيل صبري والحازم وغيرهم من الشعراء الذين لمعوا في هذا العصر، أو لم تتسلط عليهم الأضواء بعد، استطاعوا أن يبعثوا في الألفاظ القديمة التي كانت تحتلها بعض قصائد المديح النبوي روحا تكفل لها الحياة في العصر الحاضر وتفيض عليها من شباب الشعر ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل من المعاني والأخيلة والصور، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل إنهم خلقوا ألفاظا جديدة وأفكارا حية وصورا جذابة لم يكن لها وجود من قبل.

وعلى ضوء ما قدمته في البحث أستطيع أن أستخلص بعضا من آثار المدائح النبوية في الأدب.

١- يمكن الانتفاع بالرصيد المتقدم من المدائح النبوية بحيث نعرضه عرضا حسنا، ونصوره تصويرا جميلا بأقلام رجال قد تخصصوا في هذا الفن، وحينئذ يتسع المجال فيه للزيادة والابداع.

٢- لفتت عظمة الرسول وصفاته الخلقية بعض المسلمين الشعراء فاندفعوا إلى ذلك المورد العذب ينهلون منه ويغترفون من حياضه وأخذوا ينشئون القصائد في مدح الرسول يدفعهم لذلك حب صادق، يقول «نصر سمعان» الشاعر المهجري المسيحي في ذكرى مولد الرسول:

كوكب رحب الوجود به يوم .:. تجلى على الوجود شعاعه
كلما مرت العصور وغارت .:. في مهاوي الزمان زاد ارتفاعه

يشهد الله أننا في سبيل الشعر والمجد كلنا أتباعه.

٣- المعاني التي تقال في هذا الغرض أشبه بالرصيد الموجود أمام الشعراء المتأخرين، فلا يسع الشاعر منهم إلا أن يضيف إلى هذا الرصيد المعاني المبتكرة والخيال الطريف والصورة المشرقة حتى لا يكون مرددا، والدليل على ذلك أننا لو عقدنا موازنة صغيرة بين البوصيري وبين البارودي وشوقي وغيرهما من شعراء هذا العصر لوجدنا الفارق كبيرا والبون شاسعا.

فمثلا: يتحدث كل من البوصيري والبارودي وشوقي عن الغار الذي أوى إليه الرسول وصاحبه أبو بكر.

يقول البوصيري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم ∴ وكل طرف من الكفار عنه عمي

فالصدق في الغار والصديق لم يرما ∴ وهم يقولون ما في الغار من أرم

ويتحدث البارودي عن الغار:

وحابه الوحي إيذانا بهجرته ∴ فيمم الغار بالصديق في الغسم

فما استقر به حتى تبوأه ∴ من الحمائم زوج بارع الرخم

بنى به عشه واحتله سكنا ∴ يأوي إليه غداة الريح والرهم ... إلخ

ويقول شوقي عن الغار:

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة ∴ لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا ∴ همس التسابيح والقرآن من أمم

فالبوصيري أستاذ هذه المدرسة لم يزد في حديثه عن الغار عما ورد في القرآن الكريم.

أما البارودي فقد أبرز صورة فنية رائعة لم يأت بها البوصيري.

أما شوقي: فمن ذا يجاريه؟

لقد تحدث عن ذلك حديثا مصورا بارعا حيث أبرز لنا صورة قوية لعصبة الكفار وهي حائمة تدور حول الغار أثناء مطاردتها للرسول الله هو وصاحبه ليلة الهجرة.

٤- في مناسبات المولد النبوي والإسراء والمعراج والهجرة وغير ذلك اتخذت فيما مضى وسائل للملعه ومدح الملوك وأصحاب الجاه والسلطان إلى أنها الآن صارت فرصا ينتهزها الشعراء لإثارة الهمم وبعث أمجاد الماضي والدعوة إلى الوقوف صفا واحدا ضد الظلم.

يقول الشاعر أحمد محرم:

رددوا الذكرى لقوم غافلين ⁂ إنها ذكرى إمام العالمين

ولد الإيمان في مولده ⁂ والجهاد الحق والعزم المتين

٥- يمكن الاستفادة من هذه القصائد من الفقرات اللغوية والتاريخية والأدبية.

وكيف لا يكون للمدائح النبوية أثر وهذه قصيدة واحدة (البردة) سار كثير من شعراء العصر على أثرها، فاحتذاها وعارضها جماعة من الشعراء، وتناول معانيها.

كأنه فتح لهم هذا الباب حتى اندفعوا خلفه ينسجون على منواله يريدون أن يبذوه أو يلحقوه. وهذا الفعل أدب في الصميم وهل يشتغل الأدباء إلا بالأدب؟

فما إن ظهر البوصيري ببردته حتى عارضه كثير من الشعراء فمنهم:

ابن جابر الأندلسي ببديعيته التي مطلعها:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ⁂ وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وقد ابتدع ابن جابر حين عارض البوصيري فن البديعيات،

وأشهر بديعية نظمت بعد ذلك هي بديعية ابن حجة الحموي، وجرة شرح لها من ذلك الشرح الذي سماه (خزانة الأدب) وهي موسوعة ضخمة ضمت كثيرا من أدب القرن الثامن الهجري.

وهذه البردة شغلت الجماهير كما شغلت الشعراء حتى كان لها مجلس يعقد في صحن الجامع الحسين

لذا تقدم لشرحها ابن الصائغ وغيره، وعند النظر في شروحهم نرى مجموعات تغيب تتطرق إلى البردة من فقرات لغوية وأدبية وتاريخية،

ولها أثر في الشعر والشعراء فقد ضمنوها، وشطروها، وخمسوها، وسبعوها، وشرحوها،

وأشهر من عارضوها أيضاً محمود سامي البارودي الذي سمى قصيدته "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" ومطلعها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم ∴ واحد الغمام إلى حي بذي سلم

وأحمد شوقي وسمى قصيدته "نهج البردة" ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم ∴ أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة ولكن أي معارضة؟ لقد ابتكر فناً جديداً هو "البديعيات"

"ولكن صفي الدين الحلي ومن اتبعه انتهجوا نهجاً جديداً في مدائحهم إذ طرزوها بالبديع، وأسموها البديعيات ضمنوا كل بيت منها نوعاً من البديع، فجعلوها مديحاً ومتناً في علم البديع." (1)

وهناك بعض قصائد اتجه قائلوها إلى محاكاة البردة أسوة بما فعل البارودي وشوقي ومن ذلك،

١- ظل البردة للمرحوم الشيخ محمد عبد المطلب،
٢- نهج البردة لليوزباشي محمد توفيق زارعي،
٣- إلياذة المرحوم أحمد محرم،
٤- بردة محفوظ للشاعر أحمد محفوظ،

والذي لا شك فيه أن أكبر عمل أدبي في العصر الحديث في ميدان الشعر هو الإلياذة أحمد محرم التي صيغت في قالب شعري كبير، ففي عرضها ما يشهد باستيفاء عنصر الخيال كما يعرفه الذوق العربي.

وهذه الإلياذة أضافت ذخراً إلى شعرنا العربي يعتبر أكبر عمل أدبي في شعر العصر الحديث.

والنقد إلى معارضة شوقي لبردة البوصيري لننظر إلى أي حد تأثر شوقي بقصيدة البوصيري، فالبوصيري شاعر مصري من شعراء القرن السابع الهجري وفي القرن السابع كانت الحروب الصليبية مشتعلة يمتد لهيبها إلى مصر، وتتابع الويلات يوقد العاطفة الدينية ويجعل الناس يلجأون إلى ربهم وإلى الرسول يستغفرون النجاة. كل ذلك جعل البردة للبوصيري قوة في العاطفة وصدقاً في التعبير أما شوقي في معارضته للبردة فيقيد نفسه بنفس الوزن والقافية، وكذلك نجد المعارضات، وعندئذ.

"فكأن الشاعر يريد من النقاد الذين يوازنون بين القصيدتين ألا يلتفتوا

---

(1) الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمود زغلول سلام،

إلا إلى الناحية الفنية ".
أما شوقي الذي رأيناه إلى الآن يحاكي البوصيري في بردته ولا يكاد يحيد عنه، يبدأ في الاستقلال، فتظهر شخصيته وتكتسب شعره حياة وقوة.
ومن هنا تجلت ما كتب في شرح قصيدة كعب وما قيل في تشطيرها وتخميسها بين أمهات اللغة والأدب.
ومن أهم الشواهد على نضج هذا الفن أن الثعالبي في القرن الرابع جمع منه شذرات في كتابه (سر البلاغة) وهو كتاب يمثل النزعات الفنية في عصر المؤلف ومادة ذلك الكتاب لم تؤخذ عن كاتب واحد، ولا شاعر واحد، وإنما هي فقرات أخرجها من ألفاظ عدد كبير من الكتاب والشعراء.

وكيف لا نؤكد تأثير هذا الفن في الأدب وقد امتد إليه النقد والنقد كما تعرف ظل الأدب فهما متلازمان.
فهذه آراء عن حسان وشعره قال بها أئمة اللغة والشعراء ثلاثة من فحولة الشعراء.

قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاث كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام.
وقال: اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.

وقال الأصمعي: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة، فقال الأصمعي: تنسب له أشياء لا تصح عنه.

وقال الحطيئة: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:
يغشون حتى ما تهر كلابهم .. لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عمرو بن العلاء: حسان أشعر أهل الحضر.
وقال أبو الفرج الأصفهاني: حسان فحل من فحول الشعراء.
وقد سمع النابغة الذبياني شعر حسان فقال له: إنك لشاعر وكان الأعشى صديقه وشهد له بالشاعرية.
أبعد كل هذا وبعد تدخل النقاد ومدحهم يستطيع أي إنسان

(١) شوقي وشعره الإسلامي للدكتور ماهر حسن فهمي.

أن نقول: إن المديح النبوي فن ضعيف لم يؤثر في الأدب؟
كيف وقد وقف النقاد جمهوريين مسلمين مذعنين لسلامة هذا الفن ولولا ما فيه من ذخر يضاف للأدب ومن معان تزيد في معانيه ومن صور وأخيلة تقوى عن غيرها لما وقف النقاد مؤيدين كما قلت؛ النقاد الذين لا يحسبون لأحد حسابا. والنقاد الذين قال واحد منهم:

إذا لم تستطع شيئا فدعه :. وجاوزه إلى ما تستطيع

وأخيرا فإن الشعراء تأثر بعضهم ببعض في هذا الفن كسائر الفنون حتى بلغوا عنان هذا الفن وأصبحوا قدوة فيه.
وهذا شاعر لم أسمع له عربيا شعبيا من قبل وهو أحمد الساعدي يقول فيه الدكتور أحمد الشرباصي:

" أليس قريبا في الاحتمال أن يكون أحمد الساعدي قد شاهد تلك المطالب الأدبية التي بلغها البوصيري ببردته وأشعاره الأخرى وتأثر بها في نفسه، وأثر بها في غيره، فسار أحمد على خطوات البوصيري كما سار عليها كثير من فحول الشعراء. " (١)

(١) الشاعر سليل المحمدية للدكتور أحمد الشرباصي.

خاتمة البحث

ليس كل ما في هذا البحث من عمل أو من عندي وإن كان من اختياري، وقد هدفت من وراء اختياري لهذا الموضوع أن أطوف ببساتين مختلفة وحدائق ذات ألوان متعددة وثمار متنوعة لآخذ من كل واحدة زهرة، وأختار من كل مثمرة ثمرة لتكون فائدتها أكبر ونفعها أشمل.

وما أظنني بعد هذا قد أسأت الاختيار أو كنت مقصرا فيه وذلك على قدر ما وسعني من جهد وما تسمح له امكانياتي المادية والمعنوية.

وقد وصلت في بحثي إلى معلومات لم أصل لها قبل ومنها:

١- في هذا البحث تأكدت من أن بعض الشعراء مدحوا الرسول عن عاطفة لا عن تملق.

٢- نفر الناس من شعراء المدح المتكسب وانصرفوا عنه وقلت منزلة هذا الشاعر عندهم.

٣- كيف عامل الرسول الشعراء وكيف كان موقفه منهم.

٤- نشأت المدائح النبوية وأخذت تنمو كالطفل على خلاف ما يدعيه البعض من أنها لم تتطور ولم تنمو إلا في القرن السابع الهجري.

٥- كشف الحجاب عن شعراء كثيرين مدحوا الرسول ونالوا هذا الشرف ولم يتعرض لهم أحد.

٦- أوردت قصائد لشعراء مسيحيين أشادوا فيها بقوة الإسلام وعظمته وتحدثوا فيها عن صفات الرسول وما كان له من فضل في هدم قواعد الشرك وإرساء قواعد الحق والسلام.

٧- عرض شعر من شعر المديح وإظهار ما فيه من حيوية ونشاط بها يستطيع أن يحتل المقام الأول.

٨- ولا ننسى أن بهذا المديح يمكن أن نبلور حياة الرسول حتى يتأسى بها الطلاب.

٩- الدور الذي لعبه هذا النوع من الشعر في توجيه وتغذية الأدب حتى اشتغل به كثيرون وسمعه كل الجماهير.

مصادر البحث

١- شوقي وشعره الإسلامي. للدكتور ماهر حسن فهمي.
٢- المدائح النبوية. للدكتور زكي مبارك.
٣- الموازنة بين الشعراء. للدكتور زكي مبارك.
٤- الشعر في ظلال المماليك. للدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماصي.
٥- المديح النبوي في القرن الأول الهجري. للدكتور علي صافي حسين.
٦- العامل الديني في الشعر المصري المعاصر. للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوي.
٧- رسالة الدكتوراه "الشعر في ظلال المماليك". للدكتور يوسف البسيوني البسيوني.
٨- الأدب في العصر المملوكي. للدكتور محمود زغلول سلام.
٩- الشاعر سليل المحمدية. للدكتور أحمد الشرباصي.
١٠- رسالة الماجستير "المدائح النبوية في العصر الحاضر". للدكتور محمود حمودة.
١١- العمدة. لابن رشيق.
١٢- النقد الأدبي الحديث. للدكتور محمد غنيمي هلال.
١٣- ديوان حسان بن ثابت.
١٤- النقد. اشترك في وضعه لجنة من أدباء الأقطار العربية.
١٥- الدرر الكامنة.
١٦- الشعر والشعراء.
١٧- ديوان الأعشى الكبير.

فهرس

صفحة	الموضوع
١	مقدمة الباحث .
٢	الصلة بين الشعر والدين .
٣	الشعر الديني عند العرب .
٤	نشأة المدائح النبوية في الأدب العربي .
٧	تطور المدائح النبوية .
١١	موقف الرسول من شعراء المديح
١٢	المدائح النبوية في عصر البوصيري .
١٥	أثر البردة في اللغة والأدب العربيين .
١٨	المدائح في العصر المملوكي .
١٩	أسباب قوة المدائح النبوية في القرن السابع الهجري .
٢٠	ظهور البديعيات وسببه .
٢٢	المدائح النبوية في العصر الحاضر .
٢٧	ما جد في شعر المديح النبوي في العصر الحاضر .
٢٨	المديح النبوي في النثر أيضا .
٢٩	شعراء المديح النبوي كثيرون .
٣٠	أثر المدائح النبوية في الأدب العربي .
٣٦	خاتمة البحث .
٣٧	مصادر البحث .